

ملكتنا الجمال العربي في صدر الإسلام^(١)

بقلم علي الجندي

المدرس بمرحاج الثانوية

- ٢ -

تحدثنا في العدد الثالث من السنة الثالثة عن إحدى ملكتي الجمال العرب في صدر الإسلام، السيدة عائشة بنت طلحة القرشية التيمية، وحديثنا في هذا المقال عن ملكة الجمال الثانية، أو على الأصح ملكة الملاحه^(٢) السيدة سكينه بنت الحسين القرشية الهاشمية.

اختلف في اسمها فقيل: أمينة، وقيل: أمينة، والصحيح: أن اسمها: آمنة، وسكينه: لقب لها.

وأبوها غني عن التعريف، فهو سبط الرسول وريحاته، وسيد شباب أهل الجنة، أبو عبد الله الحسين بن علي - رضي الله عنهما - أما أمها، فهي الرباب بنت امرئ القيس الكلبى. كان نصرانيا فوفد على عمر بن الخطاب يريد الإسلام، فأسلم وحسن إسلامه، وتوسم فيه عمر الخير، فبعده من فوره على من أسلم من قضاة بالشام، فقفل الشيخ واللواء يخفق على رأسه، فقال عوف بن خارجة: ما رأيت رجلا لم يصل لله ركعة قط أمر قبله على جماعة من المسلمين ١١٠. ونهض على بن أبي طالب، ومعه ابنه الحسن والحسين، فأخذ بثيابه وقال: يا عم، أنا على ابن أبي طالب ابن عم الرسول وصهره، وهذان ابناى من ابنته، وقد رغبتا في مصاهرتك فزوجنا، فقال الرجل: قد زوجتك يا على، الحجة بنت امرئ القيس، وزوجتك يا حسن سلمى أختها، وزوجتك يا حسين الرباب أختها.

(١) راجع المقال الأول المنشور بالصحيفة: العدد الثالث من السنة الثالثة.

(٢) انظر الفرق بين الجمال والملاحه لدى الأقدمين في مقالنا السالف.

وكانت الرباب من خيار النساء وأفضلهن، محبة إلى الحسين مكيته عنده؛
تقول سكينه: عاتب عمي الحسن، أبي في أمي، فقال:

لعمرك إني لأحب داراً تحل بها سكينه والرباب

أحبهما، وأبذل جل مالي وليس لعاتب عندي عتاب

ولست لهم - وإن غابوا - مضيعاً حياتي أو يغيبني التراب

وقد خطبت بعد مقتل الحسين - عليه السلام - فقالت: ما كنت لأتخذ حمأ
بعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ورثته بهذه الآيات:

إن الذي كان نوراً يستضاء به بكر بلائ قتل غير مدفون

سبط النبي جزاك الله صالحاً عنا، وجنت خيران الموازين

قد كنت لي جبلاً صعباً ألوذ به وكنت تصحبنا بالرؤم والدين

من الليثامي ومن للسائلين ومن يغني، ويأوي إليه كل مسكين؟

كانت سكينه كضرتها عائشة رائعة الجمال، كما كانت أحسن النساء شعراً،

وكانت تصفف جمتها^(١) تصفيفاً مبتكراً لم ير الناس أبداً منه، فأصبح ذلك

مثالاً يحتذى به النساء والرجال على السواء، وكانت تلك الجملة تسمى (السكينية)

وقد بلغ من ذبوعها وافتتان الناس بها، أن عمر بن عبد العزيز حرمها على

الجنس الحسن فكان إذا رأى رجلاً يصفف جمته (السكينية) حلقه وبجلده.

وقد وفر الله على سكينه جمالها وصانته من كل شائبة، إذ حدث أن خرجت لها

سلعة^(٢) بأسفل عينها تهدد بالشر المستطير، فعمل لها (درايس) المتطيب -

وكان منقطعاً إليها - عملية جراحية دقيقة فبرئت منها، وبقي أثر الحزازة في مؤخر

عينها، فكان أحسن في وجهها من كل حلٍ وزينة. ومن قولها - تباهى بحسنها:

دخلت على مصعب بن الزبير وأنا أحسن من النار الموقدة في الليلة القرة.

جمعت سكينه كل ما يتطلبه الرجل في المرأة من جمال ومال وحسب ودين.

(١) الجملة: الشعر الذي يبلغ المتكبين.

(٢) السلعة بكسر السين زيادة تحدث في البدن كالغدة تتحرك إذا حركت، وقد تكون من حمصة إلى بطيخة.

فهاقت على بابها الخاطبون من سروات العرب ، فتزوجها على ترتيب بعض الروايات ، ابن عمها عبدالله بن الحسن ، ومصعب بن الزبير ، وعبدالله بن عثمان الخزامي ، وزيد ابن عمر بن عثمان بن عفان ، والأصمغ بن مروان . وكان هذا الأخير يتولى مصر ، فكتب إليه أخوه عبد الملك : اختر مصر أو سكتة ، فبعث إليه بطلاقها مكرهاً ، ولم يدخل بها ، ومتهماً بعشرين ألف دينار . ولا شك أن للسياسة دخلاً في هذا الطلاق ، فقد كره عبد الملك أن يصهر أخوه إلى بني هاشم خصوم الأمويين ، كما ساءه من قبل أن يتزوج خالد بن زيد بن معاوية رمة بنت الزبير وآل الزبير أعداء بني أمية ؛ ولهذا السبب عينه رأياه يرغم عامله الحجاج على طلاق ابنة عبدالله ابن جعفر بن أبي طالب ، ويؤنبه أشد التأنيب .

ثم تزوج سكتة إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، وطلقها كذلك قبل الدخول ، وقد رزقت من مصعب بنتاً أراد أن يسميها : ثريا ، فأبت إلا أن تسميها باسم جدتها : الرباب ، وكانت بارعة الحسن كأمها . تقول : سعيدة بنت عبدالله بن سالم : أقيمت سكتة بين مكة ومني ، فاستوقفتهما ورأيت ابنتها ، فاذا هي قد أنفلتت بالحلى والجواهر ، فقالت لي : ما ألبسته إياها إلا لتفضحه ، تريد أنها أحسن من الحلى الذي تلبسه .

وكان في سكتة مشابهة بينة لعائشة بنت طلحة ، وبخاصة في الإبدال على الأزواج . كانت تحب زوجها مصعباً حباً جماً ، ويأبى لها الكبرياء أن تظهر هذا الحب أفلاً كان اليوم الذي قتل فيه ، دخل إليها فزرع ثيابه ، ولبس غلالة وتوشح بتوب ، وأخذ سيفه ، فعلبت سكتة أنه لا يريد الرجوع ، فصاحت من خلفه : واحزنه عليك يا مصعب ، فالتفت إليها قائلاً : أو كل هذا لي في قلبك ؟ فقالت : إي والله ، وما أخفى أكثر ! فقال : أما لو كنت أعلم أن هذا كله لي عندك ، لكان لي ولك شأن ، ثم خرج ولم يرجع - رحمه الله -

وكان من شروطها على زيد بن عمر بن عثمان ألا يمتنعها سفرأ ، ولا مدخلا ولا يخرجها ، وألا يخالفها في أمر تريده ، وأن يقيمها حيث صاحبها (أم منظور) وكانت تقول له : يا عثمانى ، اخرج بها إلى مكة ، فإذا سار يوماً أو يومين قالت :

رجع بنا إلى المدينة ، فإذا رجع يومه ذلك ، قالت : اخرج بنا إلى مكة . ولكن من الإنصاف أن نقول : إن هذا الدلال المسرف والتجنى المفرط ، لم يمنعها أن تكون وفية لأزواجها ، شديدة الحرص على كرامتهم ، ورعاية منزلتهم ، فقد حدث أن جفاها زوجها العثماني ، فغناه خادمها أشعب هذا الشعر :

علق القلب بعض ماقد شجاء من حبيب أمسى هوأنا هواه
ما ضرارى نفسى بهجران من ليس م مسينا ولا بعيدا نواه
واجتنبانى بيت الحبيب وما الخلد م بأشهى إلى من أن أراه
فقال الزوج المقيم : ما عدوت ما بنفسى يا أشعب ، وأعطاه حلتى ، فلما علمت
سكينته بذلك ، كبر عليها أن تلبس أشعب حلة زوجها ، فقالت له : وأنت الآن
تريد أن تلبس حلة ابن عثمان ؟ لا والله ولا كرامة ، فاشتريتها منه بثلاثمائة
دينار . ولما قتل زوجها مصعب ، خطبها عبد الملك بن مروان ، فقالت : والله
لا أتزوج قاتل زوجى أبداً .

وقد ورثت سكينته من بنى هاشم خصائص تعرفها في هذا البطن من قریش :
فكانت سخية مسرفة في السخاء ، تنثر العطايا والصلات على الشعراء والمغنين ،
وذوى الحاجات بغير حساب ، وبكفى للدلالة على احتقارها المال أنها كانت ترمى
الجار . فسقطت من يدها الحصاة السابعة فرمت بجأتمها ، ولا يدري إلا الله كم يبلغ ثمنها
وكانت شجاعة جريئة ، تتحدى حكام عصرها ولا تباليهم ، فكانت تجيء يوم
الجمعة ، فتقوم بإزاء خالد بن عبد الملك بن الحارث الأموى ، فإذا سب عليها
(كرم الله وجهه) سبته هى وجوارىها ، فكان يأمر الحراس بضرب جوارىها ،
ولا يتعرضون لها .

وكانت قوية الشكيمة ، صلبة العود ، شديدة اللدد والخصومة ، ومن آثار ذلك
أن زوجها زيد بن عمر خرج مغاضبا لها ، فأقام مع جواريه سبعة أشهر بعيداً
عنها ، فاستعدت عليه عمر بن عبد العزيز ، وإلى المدينة إذ ذاك ، فأمر ابن حزم
أن يقضى بينهما ، فلما حضرته أراد أن يدخلها وحدها ، فأبت إلا أن يكون معها
(٦ صحيفة دار العلوم)

جواربها، فأدخلن معها، فقالت: يا جارية، اني لي هذه الوسادة، فجلست عليها وزوجها لاصق بالسريـر يكاد يدخل في جوفه خوفا منها، فقال لها ابن حزم: يا بنة الحسين، إن الله يحب القصد في كل شيء. فقالت: وما أنكرت مني؟ والله إني وإياك لكلذي يرى الشعرة في عين صاحبه، ولا يرى الخشبة في عينه. فقال: لو كنت رجلا لسطوت بك. فقالت: لا تزال تتوعدني. واشتد بهما اللجاج، فقال ابن أبي جهـم العدوي - وكان حاضرا - ما بهذا أمرنا فامض الحكم ولا تشاتم. فقالت لمولاة لها: من هذا؟ قالت: ابن أبي الجهم. فقالت سكية: لا أراك هنا، وأنا أشتم بحضرتك، وهتفت برجال من قريش، فغضب ابن أبي الجهم واشتد عليها، فقالت: أما والله لو كان أصحابي بالخيرة أحياء لكفوا العبد اليهودي عن شتمى، إياى - عدو الله - تشتم وأبوك الخارج مع اليهود ضئالة بدينهم؛ حين أخرجهم رسول الله إلى أريحاء؟ ثم خضع لها زوجها زيد وترضاها، فقالت: ما عرقتى بك يا زيد! أترأك تمكث مع جواربك سبعة أشهر ثم أعود إليك؟ ثم خرجت، والقاضى ابن حزم معقود اللسان لا يفوه بكلمة. وكان عمر بن عبد العزيز ينتظر وسط الدار في ليلة شانية، فلما بلغته القصة ظل يعضح حتى أمسك بطنه، ثم دعا بزوجها من الغد فأحلفه وردما عليه، ولكن النزاع لم ينقطع بينهما، فكتب إليه سليمان بن عبد الملك: إني أعلم أنك قد شرطت لها شروطا، فإن لم تف بها فطلقها، فطلقها زيد.

وكانت سمحة البديهة، قوية العارضة، ملهمة الإجابة، تذكرنا أجوبتها المنفحة الصارمة بأجوبة جدها على، وعمها الحسن، وابن عباس، في نقاشهم خصومهم من بنى أمية وغيرهم. فمن طريف ذلك: أنها كانت يوما في مأتم فيه بنت لعثمان بن عفان، فقالت بنت عثمان: أنا ابنة الشهيد، فسكتت سكية حتى قال المؤذن... وأشهد أن محمداً رسول الله. فقالت لها: هذا أبى أم أبوك؟ فانقطعت العثمانية وقالت: لا أخفر عليكم أبدا.

ومن ردودها القاتلة: أنها خرجت بعد مقتل مصعب تريد المدينة، فأطاف بها أهل الكوفة قائلين: أحسن الله صحابتك يا بنة رسول الله، فقالت لهم:

لا جزاكم الله عنى خيرا ، ولا أخلف بخير عليكم من أهل بلدنا قتلتم أبى ، وجدى وعمى ، وزوجى . وأخى ، فأبى وجه تقابلوننى ؟ أيتيمونى صغيرة ، وأرحلتمونى كبيرة ١١ . ومن كلماتها التكمية اللاذعة : أنها أنشدت يوما أياتا لعروة بن أذينة يرثى أخاه بكرا ، فلما انتهت إلى قوله :

على بكر أخى ولّى حميدا وأبى العيش يحسن بعد بكر ؟
قالت : ومن أخوه بكر ؟ أليس هو الدحداح الأسيد القصير ، الذى كان يمر بنا صباحا ومساء ؟ قالوا لها : نعم . فقالت ، كل العيش والله يحسن بعد بكر ، حتى الخبز والزيت .

وكانت سكية بعد ذلك كله ذكية أربية ، صادقة الفراسة ، دقيقة الملاحظة ، بارعة فى انزعاع التشبيها ، يقول ابن الماجشون : نظرت إلى سكية ، فقالت : كأن هذا الرجل الماجشون . - والماجشون صبغ أصفر تخالطه حمرة - فغلب على هذا اللقب ، وعرفت به ١٢ .

ونظرت إلى رجل من ولد عمر بن الخطاب - وكانت فيه جهامة - فقالت : هذا الرجل فى قریش كالشیرج^(١) فى الأدهان . فكان بعد ذلك يسمى (فلان شیرج) بل يقال : إنها ما لقبت أحدا لقبا إلا لصق به ، لا يفارقه حتى الموت . وهناك ناحية من أخصب نواحي سكية ، وهى ناحية الظرف والفكاهة ، فقد كانت موسومة بالدعابة البارعة والمفاكة المستملحة ، حتى لقد استرعى ذلك أذهان الناس ، فقبل لها : يا سكية ، أنت تمزحين كثيرا ، وأختك فاطمة لا تمزح ، فكان جوابها ضربا من هذا المزاح الذى لا يفارقها ، قالت : لأنكم سميتموها فاطمة باسم جدتها المؤمنة ، وسميتمونى آمنة باسم جدتى التى لم تدرك الإسلام . وما يدل على أن هذا المزح طبيعة فيها أن دبرة^(٢) لسعتها فى صغرها فألمتها ، فقالت لها أمها : مالك يا سيدتى ؟ فقالت سكية : لسعتنى ديرة ، مثل الآييرة ، أوجعتنى قطيرة ! وهذا الجواب الشعرى ينظر من كئيب إلى قول عبد الرحمن بن حسان - وقد لسهه زنبار - فقال لأبيه : لدغنى طائر ، كأنه ملغف فى

(١) الشيرج : ما تسميه العامة : السيرج ، وهو دهن السمسم (٢) نحلة

بردى حبره ا فقال حسان : هذا شعر ورب السكبة .
ومن نوادرها الطريقة فيما نحن بسيله ، أنها وقفت على عروة بن أذينة -
وكان من جلة العلماء والصالحين - فقالت له : أنت القائل :

إذا وجدت أوار الحب في كبدي أقبلت نحو سقاء القوم أبرد
هبنى بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشا تنقد؟
فقال نعم . فالتفت إلى جواربها وقالت : هن حرائر، إن كان هذا خرج من
قلب سليم .

وهي في دعائها الفاشية لا تقف عند حد ، فتراها مرة تعبت بأولى الأمر .
فتمهم وتتعدهم . غير حافلة بما يكون : أرسلت مرة إلى صاحب الشرطة : أن
دخل علينا شامى ، فابعث إلينا بالشرط ، فأتى رئيس الشرطة ففتحت له ، وأمرت
جارية من جواربها أن تخرج له برغوثا ، وقالت : هذا هو الشامى الذى
شكوناه إليك ، فانصرفوا وهم يضحكون . وتراها مرة أخرى تحدث بدعائها فتنة
تكاد تلتهم الأخضر واليابس ، وهي تشاهد ذلك وادعة ساكنة ، كأن الأمر
لا يعنيا : حدث أن خطبها إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، فردته أقبح رد ،
وفي ذات يوم تهتت جارتها بنانة تنهدا عميقا ، فقالت لها : ويلك ! مالك ؟ !
فقالت الجارية : أريد أن أرى فى هذا البيت جلبة ، أى عرسا ! فأرسلت سكينه من
فورها إلى ابن عبد الرحمن بن عوف الذى خطبها فردته ، وأظهرت رضاها به -
وهي فى نفسها غير راضية - فأحضر الزوج نحو ثمانين رجلا من بنى زهرة ،
وغيرهم من أعيان قريش ، فلما سمع بذلك بنو هاشم غضبوا غاية الغضب ، وجاءوا
بعضيهم ، وتضارب الطرفان ، فبطل العرس . وشج أكثر من مائة إنسان ، وحين
انصرف الجمع التفتت إلى جارتها قائلة : أى بنانة ، أرايت جلبة ؟ قالت : إى والله
ولكنها شديدة .

وكانت إذا غضبت على خادما أشعب ، حكمت عليه أن يموء كالهريرة ، أو يقرقر
كالدجاجة . يقول رجل من قريش : دخلت منزل سكينه ، فإذا أنا بأشعب تحت
سرير يقرقر كالدجاجة ، فجملت أنظر وأتعجب ، فقالت : مالك تنظر إليه ؟ إنه لحبيث

أفند علينا أمورنا بغبواته ، خفضته بيض دجاج ، وجعلته تحته ، وأقسمت ألا يقوم حتى ينقُف . وكان للفرزدق دالة عليها لتشيعه للعلوين ، فنضبت عليه ذات مرة ، وحلفت ألا يدخل إليها حتى يشيب الغراب فأراد الفرزدق أن يترضاها بنوع من الدعابة التي تحبها ، فدخل إليها ، وجعل أمامه نصيبا الشاعر - وكان أسود البشرة ، أشيب الرأس - فقالت سكينه : أخزأك الله ، وكيف أضنع يميني ؟ فالتفت الفرزدق إلى نصيب قائلا : هذا هو الغراب وقد شاب ، فضحكت ورضيت عنه .

أما سكينه الأدبية ، ففقر بالعجز عن الإحاطة بنواحيها ، وحسبنا أن نقول : إنها كانت حجة من حجج عصرها في هذا الفن : كان كبار الشعراء ، وحقاق المغنين يتحاضرون إليها مطمئنين ، فتقضى بينهم قضاء لا يرد ؛ لأنه قضاء العالم الخبير . دخل إليها ابن سريج والغريض في بعض حجراتها ، فقال ابن سريج : ياسيدتي إني كنت صنعت صوتا ، وتنوقت فيه ، وخبأت لك في حريرة ، في درج مملوء مسكا ، فنازعه هذا الفاسق ، فأردنا أن نتحاكم إليك ، فأينا قدمته تقدم ، فغناها ابن سريج :

عوجي علينا ربة الهودج إنك إلا تفعلني تخرجي
فقلت : هاته أنت يا غريض ، فغناها إياه ، فقلت لابن سريج : أعدده ، فأعاده ، ثم قالت : يا غريض ، أعدده ، فأعاده ، فقلت : ما أشبهكما إلا باللقاو والياقوت في أعناق الجوارى الحسان ، لا يدرى أى ذلك أحسن .
وأنشدت مرة قول الحارث المخزومي :

فقرغن من سبع وقد جهدت أحشاؤه من موائل الجر (١)
فقلت : أحسن عندكم ما قال ؟ قالوا : نعم . قالت : وما حسنه ؟ فوالله لو طافت الإبل سبعا لجهدت أحشاؤها . ودخل عندها كثير عزة ، فقلت له :
يا بن أبي جمعة ، أخبرني عن قولك في عزة :
وما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جشجاشها (٢) وعرارها

بأطيب من أردان عزة موهنا وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها
ويحك ! وهل على الأرض زنجية منتنة الإبطين، توقد بالمندل الرطب نارها
إلا طاب ريحها ؟ ألا قلت كما قال عمك امرؤ القيس :

ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب ؟
وخرج الفرزدق حاجباً ، فلما قضى حجه قصد المدينة ، فدخل إليها فسلم ، فقالت :
يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبت ، أشعر منك جرير
الذي يقول :

بنفسى من تجنبه عزيز على ومن زيارته لئلام
ومن أمسى وأصبح لأراه ويطرقني إذا هجع النيام
فقال : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . قالت : فأقيموه ، فأخرج ،
ثم عاد إليها من الغد فقالت : يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت
كذبت ! صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول :

لولا الحياء لهاجنى استعبار ولزرت قبرك ، والجيب يزار
كانت إذا هجر الضجيع فراشها كُتِم الحديث ، وعفت الأسرار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار
فقال : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه ، فأمرت به فأخرج ، ثم عاد
فى اليوم الثالث وحولها مولات كانهن التماثيل ، فأعجب الفرزدق بوحدة منهن ،
ثم قالت سكينه : من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبت ! أشعر منك جرير
الذى يقول :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلنا ثم لم يحين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا
فقال : والله لو أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . فأمرت بإخراجه . فالتفت
إليها قائلاً : يا بنت رسول الله ، إن لى عليك حقاً عظيماً : خرجت إليك من مكة ؛
إرادة التسليم عليك ، فكان جزاؤى تكذيبى وطردي ، وتفضيل جرير على ، وبى
ما قد عيل منه صبرى ! وهذه المنايا تغدو وتروح ، ولعل لا أفارق المدينة حتى

أموت ! فإذا أنا مت ، فمري أن أدرج في كفى ، وأدفن في جوف هذه الجارية -
يعنى التى استحسناها - فضحكت سكينه ، وأمرت له بها ، فخرج آخذاً بربطتها ،
والجوارى يدفون في أفقيتهما . ثم نادته سكينه : يا فرزدق ، احتفظ بها ، وأحسن
صحبته ، فقد آثرتك على نفسى بها .

وحدث حماد قال : اجتمع بالمدينة راوية جرير ونصيب والأحوص
وجميل ، فاتفقوا على تحكيم
سكينه ؛ لما يعرفون من عقلها ، وبصرها بالشعر . فقالت لراوية جرير : أليس
صاحبك الذى يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام
وأى ساعة أحسن من الطروق ؟ قبح الله صاحبك ، وقبح شعره !

ثم قالت لراوية جميل : أليس صاحبك الذى يقول :
فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلايها لما فات من عقلى
فما أدرى بصاحبك من هوى . إنما يطلب عقله ، قبح الله صاحبك
وقبح شعره !

ثم قالت لراوية نصيب : أليس صاحبك الذى يقول :
أهيم بدعد ما حيت فإن أمت فوا حزنا من ذاهيم بها بعدى ؟
فما أرى له همة إلا فيمن يتعشقها بعده ! هلا قال :

أهيم بدعد ما حيت فإن أمت فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى
قبح الله صاحبك وقبح شعره !

ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبك الذى يقول :
من عاشقين ترأسلا وتواعدا ليلا إذا نجم الثريا حلقا
بأنا بأنعم ليلة والذها حتى إذا وضع الصباح تفرقا
قال : نعم . قالت : قبح الله صاحبك وقبح شعره ! هلا قال : تعانقا .

فلم تكن على واحد منهم ، ولم تقدمه في ذلك اليوم ، وقد ذكر الهيثم بن عدى
مثل ذلك في جميعهم إلا جيلا ، فإنه خالف فيه هذه الرواية وقال : إنها قالت
لراويته : أليس صاحبك الذى يقول :

فيا ليتني أعمى أصم تقودني بثنية ، لا يخني على كلامها
قال : نعم . قالت : رحم الله صاحبك ! إنه كان صادقاً في شعره ، وكان
جميلاً كاسمه .

وذكروا أنه اجتمع في ضيافتها جرير والفرزدق وكثير وجميل ونصيب ،
فكثروا أياماً ، ثم أذنت لهم ، فدخلوا إليها ، فجلست حيث تراهم ولا يرونها ، وتسمع
كلامهم ، ثم أخرجت وصيفة وضيئة ، قد روت الأشعار والأحاديث ، فقالت
لهم : أيكم الفرزدق ؟ قال لها : هأنذا . قالت : أنت القائل :

هما دلتاني من ثمانين قامة كما انحط باز أقم الریش كاسره
فلما استوت رجلاي بالأرض قلنا أحى يوحى ؟ أم قتل نحاذره ؟
فقلت : ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا وأقبلت في أعجاز ليل أبادره
أبادر بوابين قد وكلا بنا وأحمر من ساج تبص مسامره
قال : نعم . قالت : فمادعاك إلى إنشاء سرها ؟ هلا سترت عليك وعليها ،
خذ ألف درهم والحق بأهلك .

ثم دخلت إلى مولاتها وخرجت ، فقالت : أيكم جرير ؟ قال : هأنذا . قالت :
أنت القائل :

تجرى السواك على أغر كأنه برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذي حدثنا لوصلت ذاك وكان غير لمام
إني أواصل من أردت وصاله بجمال لا صلف ولا لوام
قال جرير : نعم . قالت : هلا أخذت يديها ، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت
عفيف وفيك ضعف . خذ هذه الألف ، والحق بأهلك .

ثم دخلت إلى مولاتها وخرجت ، وقالت : أيكم كثير ؟ قال : هأنذا . قالت :
أنت القائل :

وأعجبنى يا عز منك خلائق كرام إذا هد الخلائق أربع :
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ودفعك أسباب المنى حين يطمع
فوالله لا يدرى كريم مماطل أينساک إذ باعدت أم يتصدع

قال : نعم . قالت : ملحت وشكلت ! خذ هذه الثلاثة الآلاف ، والحق بأهلك ،
ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، فقالت : أيكم نصيب ؟ قال هأنذا . قالت
أنت القاتل :

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت : بنفسى النشأ الصغار
بنفسى كل مهضوم حشاما إذا ظلت فليس لها انتصار
قال : نعم . قالت : ريبتنا صغارا ، ومدحتنا كبارا . خذ هذه الآلاف ، والحق بأهلك .
ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، فقالت : يا جميل ، مولاتي تقرئك السلام ،
وتقول لك : والله ما زلت مشتاقة إلى رؤيتك ، منذ سمعت قولك :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأى جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيـل بينهن شهيد
جعلت حديثنا بشاشة ، وقتيلنا شهيدا ، خذ ألف دينار والحق بأهلك .
وقد بلغ من حبها للأدب ، وتبعتها لأخباره ، أنها كانت تسير ذات ليلة ،
فسمعت حاديا يحدو في الليل ويقول :

لولا ثلاث هن عيش الدهر ...
فقالت لقائد قطارها : الحق بهذا الرجل حتى نعرف ماهذه الثلاثة ، فسار بها
طويلا حتى تعب ، فقالت له : سر أنت حتى تسمع منه ، فرجع إليها ، فقال : سمعته
يقول : الماء والنوم وأم عمرو .

فقالت : قبحه الله ، لقد أتعبنا منذ الليلة .
هذا ، ولم تسلم سكينه مع سمو مكاتها في قریش- من جمحات ابن أبي ربيعة ،
ولكنها كانت لما يقول أرحب صدرا من ضربتها عائشة بنت طلحة ، ولعل ذلك
راجع إلى أن حظها من الطرب والمرح أوفى من حظ عائشة ، ونجل سكينه عن
إيراد شيء من شعر عمر فيها ، مع خلوه من الفحش والرفث . وأذكر بهذه المناسبة:
أن إسحاق الموصلي غنى الرشيد صوتا في نسيب عمر بها ، فوضع الرهيد القدح

من يده ، وغضب غضبا شديدا ، وقال : لعن الله هذا الفاسق ، ولعنك معه . فسقط
في يد إسحاق ، وعرف الرشيد ما به فسكن غضبه : ثم قال له : أتغنيني أحاديث
الفاسق ابن أبي ربيعة في بنت عمي ، وبنت رسول الله ؟ ألا تتحفظ في غنائك ،
وتدري ما يخرج من رأسك ؟ عد إلى غنائك الآن ، وانظر بين يديك . قال إسحاق :
فتركت هذا الصوت حتى أنسيته ، فما سمعه مني أحد بعده .

وَمَا تَقْدِمُ نَعْرِفُ أَنْ رِيحَاتِي قَرِيش : عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين ،
كما تشاكلنا في الحسن والجمال والثروة والجاه ، تشاكلنا كذلك في عامة أخلاقهما ،
ونزعتهما الأدبية . رحمهما الله تعالى !

على الجنري

